

لمحات من تاريخ الحركة الفنية في النجف

(القسم الثاني) الأخير

الشهيد الأستاذ عبد الرحيم محمد علي (*)

٤- الخط:

الخط فن جميل جداً، ويعتبر من مهم موروثاتنا من عز الحضارة العربية في القرون الوسطى، ولم تزل الاجيال تعز به، وتفاخر بما وصلت اليه يد الفنان في هذا الشأن، وقد زخرت نفائس الاثار الباقية القائمة في مراكز اشعاع الحضارة بدمشق وبغداد والاندلس والقاهرة وغيرها بنماذجه التي يشد اليها الرحال للنظر اليها وتصويرها، والاعتزاز بها، وكذلك جلائل المخطوطات التي تحرص في الحفاظ عليها اهم مكتسبات الدنيا، لافرق بين شرقها وغربها ما دامت تراثاً إنسانياً وفناً عالمياً. ولعل المدن التي اشتهرت كمراكز دينية هي اكثر حفاظاً على هذا التراث الان للعلاقة المتينة بين هذا الفن القائمة فيها، وطبيعة الحياة التي يحياها اهلها.

والنجف واحدة من مهمات الحواضر الاسلامية والمراكز الروحية في العالم بلاشك، وتأريخها العلمي العريق الذي تحظى الالف عام يشهد لها بأهمية رسالتها الحضارية، والحديث عنها طويل وطويل، فلما كانت النجف حاضرة اسلامية، ومدينة حضارية فعلاقتها بهذا الفن، فن الخط اذن وثيقة جداً، وليس ادل على صحة قولنا كشواهد ناطقة لا تقبل الرد، إلا ما نجده الآن من معالم شاخصة تدل على عراقية فن الخط على جدران الصحن من الداخل بنماذجه الرائعة. وعلى جدران سطح الكيشوانيتين المحادتين للطارمة الكبيرة، وحائط سطح الحرم وفي داخل الحرم الشريف، وعلى المقدس من جوانبه الأربعة، لعينية ابن الحديد، فهي آية ناطقة من آيات هذا الفن، وتبقى نماذج حية للخط بقواعده الاصيلية، وهي تثير انتباه الداخل إلى الصحن بلا استثناء وتلفت نظره إلى مافيها من مهارة، وتسرع نفسه إلى ما فيها من اشراق، وهذه النماذج باقية ما بقي الدهر، وما بقي القبر المقدس شامخاً يتحدى الأعصر والقرون.

ولما كانت النجف مدينة حضارية - كما قلنا- فقد زخرت بعدد من المدارس الدينية التي حملت مشعل العلم طيلة مئات السنين يشد اليها الرحال لطلب العلم من مختلف جهات الدنيا

(*) أديب فاضل، باحث، محقق، كاتب (غيبته السلطة ١٩٨١م)

عن: جريدة العدل النجفية، السنة ١٣ ع ٢٦ و ٢٧ في ١٣/٢/١٩٧٩ و ٣٠/٦/١٩٧٩.

الاسلامية لتلقى مختلف صنوف المعرفة فيها (وقد تناولت تفصيل ذلك في مكان آخر من موسوعتنا: فصول من تاريخ النجف) وقد بنيت هذه المدارس بأجمل عمارة، وهي مزخرفة بأروع الخطوط التي تعزز هذا الفن في عيون ناظره، ومن امثلتها مدرسة: السيد محمد كاظم اليزدي، والشيخ محمد كاظم الخراساني، وجامعة النجف الدينية، وغيرها...

وفي النجف مقبرة عريقة في القدم، وفيها شيدت الكثير من المقابر بعدد من اعلام العلم والحكم والسياسة والادارة والثراء يمناً بمجاورة قبر امير المؤمنين عليه السلام وبعض هذه المقابر اخبى عليها الدهر كمقبرة حسام السلطنة والمسقطى باشا، وبعضها الآخر لم يزل باقياً وهي بابدع ريازة وقد نقشت جدرانها بنماذج من الخطوط، وصخور قبورها باروع النقوش من هذا الفن كمقبرة محمد خان، والصدر الاعظم محمد حسين خان، واغا خان الاول والثاني، وغيرهم. والمساجد الكبيرة المبنوثة في حنايا المدينة، وقد طعمت جدرانها بالكاشاني المكتوب بالخطوط النفيسة كمسجد الشيخ الانصاري «الترك» ومسجد الهندي، ومسجد الطوسي، ومسجد الخضراء وغيرها.

ولما كان الكتاب، ودور الكتب من مقتضيات الدراسة والاختصاص في العلم، فقد اشتهرت هذه الحضارة بشهرة متميزة في كثرة مكتباتها العامة في المدارس الدينية والعامة الاهلية والرسمية وغيرها، والخاصة في البيوت العلمية وغيرها، وما تحفل به أرففها من نفائس المخطوطات التي يعد بعضها من فرائد النسخ، وبعض هذه المخطوطات كتب باقلام نجفية، وهو مزخرف باجمل النقوش وبمختلف الاحبار، وكان هذا ديدن الطلبة ورجال الفضل في كتابة هذه المخطوطات التي يحتاجونها للدراسة وبعضها تكتب بشكل خاص لتهدى إلى العظماء، وأهل الثراء، ومن يقدر العلم ويسعى إلى تكريم اهله من رجال الحكم والسياسة، وبعضهم كان شغله الشاغل تكثير النسخ النادرة ذات الموضوعات المهمة والقيمة العلمية الجيدة، وكان آخر من يقوم بهذا العلم من نعرف العالم الجليل الخالد الذكر الشيخ شير محمد. وبدأ هذا العمل: «كتابة الكتب» يتضاءل تدريجياً حتى انحسر وجوده الآن بسبب وجود المطابع الحديثة التي اختصرت الوقت والمال بشكل لا يحتاج إلى اطالة الحديث... وبدا هذا في النجف حدود عام ١٣٢٧ حيث دخلت اول مطبعة حجرية ومطبعة بالحروف، وأخذ العلماء ورجال الفكر يطبعون انتاجهم في هذه المطابع.

وكانت الطباعة الحجرية تحتاج إلى فن الخط، فكان لابد من متخصصين فيه، ليرسل اليه الكتاب المطلوب طبعه ليكتبه على هيئة صحائف الكتاب المطلوب حجمه بحبر خاص، وعلى ورق الكرافت لانه لماع ويتحمل الجهد وهو الورق الذي يصنع منه الآن الاكياس الورقية

لاستعمال العطارين، ثم ترسل الصحف إلى المطبعة، وهناك تكون الصخرة مهيئة للعمل بان تكون ناعمة السطح، ويكون تنعيمها بواسطة صخرة اخرى ثانية يوضع سطحها على سطح الاولى ويوضع بينهما رمل ناعم وتحرك الصخرة حركة رحوية حتى تزول كل النتوءات وتصبح صقيلة السطح بشكل تكون مستعدة لنقل كتابة الخطاط عليها، وهنا تحمي الصخرة بواسطة توجيه النار عليها، ثم تلتصق عليها الصحف المكتوبة، وتوضع الصخرة داخل جهاز بخار يسمى «البريس» مع الصحف ويضغط البريس الورقة المكتوبة لتنتقل الكتابة من الورق على الصخرة، وبعد ذلك يخرج العامل الصخرة ليجري عليها تحديد المصاحف بمساطر، ثم تكون الصخرة بعد ذلك جاهزة لتصبح، وتوضع في الماكينة، لتطبع عليها الصحف، وبعد طبع عدد من الاوراق واثناء الطبع هنالك عامل خاص غير الطباع بيده قطعة قماش يبلل بها الصخرة، لتكون مستعدة لاختد الحبر بشكل اكثر.

وهنا اصبح لابد من محترفين يقومون بكتابة الصحف المطلوبة فكان الامداد لهؤلاء المحترفين عن طريق الكتاتيب الذين كانوا يقومون مقام المدارس التعليمية، وكانت المادة الرئيسية التي يشدد عليها الشيخ المكتب هي مادة الخط، وكانوا يستعملون سبورات من التنك، يكتبون عليها بأقلام القصب الخاص والحبر الصيني الجيد.. فكان الكتاتيب منتشرون في اكثر انحاء المدينة، ولهم القدح المعلى من التقدير والتقدير أحياناً، لانهم يتولون تبليغ رسالة الحياة والدين في آن واحد، وان كانت طرق التربية ليست بالشكل الجيد عندهم الا اننا لا يمكن ان ننسى فضلهم في ايام انعدام وجود المدارس، وان وجدت فبشكل لا يسد حاجة البلد، ولا متطلبات العلم فكان هؤلاء الكتاتيب هم البديل، وعليهم المعول بخصوص العلوم الاسلامية، وفي مقدمتها الخط، وبذلك كان المتخرجون من هؤلاء الكتاتيب بشكل عام من ذوي الخطوط الجيدة، وقد برز على ايديهم الكثير من الخطاطين الماهرين، ونضرب مثالين ظاهرين على اولئك المهرة، اولهم الخطاط الشهير الشيخ احمد الزنجاني، وثانيهم الخطاط الماهر السيد نجومى اما الشيخ الزنجاني فقد كتب عشرات الكتب من مصاحف وأدعية وزيارات وفقه واصول وغيرها مع مئات اللافتات، وهو يتردد بين ايران والعراق، واما السيد نجومى ففي مكتبة السيد الحكيم العامة نماذج من خطوطه تعد آية في فن الخط.

ثم برزت مجموعة من الخطاطين الشباب من ذوي الخطوط الجميلة التي تتجلى فيها المهارة والذوق الرفيع باجلى مظاهرها ولعل بينهم من تبشر لوحاته بمستقبل زاهر على مستوى القطر، ونذكر من نعرف من هؤلاء: جاسم حمود حسين، جواد سبتي، عبد الرزاق محمد باقر، عبد الامير حسين، صلاح الموسوي، حسن مسعود، مجيد حميد، هادي مواش... ثم ثاني مجموعة اخرى بعد هؤلاء، نعرف منهم: علي الحلو، جواد الخليلي، محسن قاسم وهو في الحقيقة رسام

اكثر من خطاط، اما الخطاط علي الرميثي فقد طلق الخط الآن، ولا نعرف سيعود به الشوق إلى ممارسة هذه الهواية ام لا؟ ولا ننسى الدورات التي اقيمت دعماً لهذا الفن في النجف، وتوجيه اصحاب القابليات نحو اهميته، وكانت اولى الدورات التي اقيمت باشراف السيد هادي مواش، وكانت الدورة الثانية التي اقامتها نقابة المعلمين باشراف السيد هادي مواش أيضاً عام ١٩٧٥، ثم اقام الخطاط السيد عبد الامير حسين دورة في اتحاد الشباب والفتوة والطلائع سنة ١٩٧٦.

واول معرض تشهده النجف للخط هو الذي اقيم للخطاط السيد عبد الامير حسين وهو طالب في الصف السادس الابتدائي بمدرسة النعمان ضمن جناح معرض المدرسة عام ١٩٦٥، برعاية الاستاذ عبد الرزاق محمد باقر... اما اول معرض يقام للخط بمستواه الجيد، وقد روعيت فيه الاصول الصحيحة هو الذي اقيم عام ١٩٧٤ للخطاطين مجيد السلطاني وعبد الامير حسين (النجف و١٩٥٠) بإشراف ورعاية اتحاد نقابات عمال النجف، قدمت فيه هدايا ثمينة للخطاطين المذكورين... وفي عام ١٩٧٥ اقيم في مدرسة الخورنق معرض للخط اشترك فيه كل من جاسم حمود وعلي الحلو وعباس غالي برعاية الاستاذ جاسم الركابي محافظ النجف ووزعت فيه الجوائز بالتساوي...

ثم اقيم معرض لجمع من خطاطي النجف سنة ١٩٧٦ وكان المشاركون فيه كل من عبد الامير حسين، وعلي الحلو وعباس غالي، برعاية دور الثقافة الجماهيرية قدمت فيه الهدايا لكل المشاركين على أساس التساوي..

وبعده اقيم معرض عام ١٩٧٧ من قبل مديرية دور الثقافة الجماهيرية، شارك فيه كل من: جاسم حمود، وصلاح الموسوي، وعلي الحلو، وعباس غالي، وجواد سبتي، وعبد الجبار الزبيدي الوحيد من الكوفة، والناشئ نسيم، وكانت الهدايا قد قدمت للجميع على اساس التساوي كذلك.

كما اقيم معرض للخط من قبل الخطاطين عبد الامير حسين ومجيد السلطاني عام ١٩٧٨ برعاية محافظ النجف حامد محمود الحسن، وكانت الهدايا فيه قطعاً من القماش الثمين، على اساس التساوي، وكان اخر معرض اقيم حتى الآن هو معرض الخطاط جاسم حمود ١٩٧٨، في النجف بنادي الموظفين وقد افتتحه الاستاذ حامد محمود الحسن برعاية دور الثقافة الجماهيرية، وحصل على هدايا كثيرة.

كما اقيم معرض للخط في السادس من كانون الثاني ١٩٧٩ اشترك فيه كل من: جاسم حمود وعبد الامير حسين، والسيد مجيد السلطاني ببغداد بمناسبة عيد الجيش المبارك. أما السيد صلاح الموسوي فقد اقام معرضين، كان الاول قد اقيم عام ١٩٧٥، والثاني عام

١٩٧٦ ببغداد برعاية وزير الاعلام، وقدمت له جوائز، وأشرت بعض لوحاته وقد انتسب مؤخراً إلى جمعية الخطاطين نذكرهم تقييماً لفنهم، وتقديراً لمشاركاتهم، وهم كل من: جاسم حمود، وعبد الامير حسين، وصلاح الموسوي وعبدالرزاق محمد باقر، وعباس غالي.

٥- الزخرفة المعمارية في النحت

كانت النجف ولم تزل من الحواضر العراقية المبكرة التي تأخذ باسباب الحضارة، ونتائج المدنية، قبل غيرها من الحواضر الاخرى، في كل مجال من مجالات الحياة، ومنها العمران الذي يدل دلالة واضحة ما للمدنية من تأثير عليها، لذلك نلاحظ ان ناحية العمران من النواحي المهمة التي تبحث في قضايا الحضارة الانسانية بشكلها الواسع، وما بلغ فيه من روعة الفن وسمو الذهن الفنية التي رعته.

وهذا الجانب اذا طبقناه على هذه المدينة العريقة نجدها - كما قلنا - والى ذلك اشار الرحالة الشهير ابن بطوطة الذي قصد النجف عام ٧٢٥ هـ حيث قال: «... فنزلنا مشهد علي بن ابي طالب (رضي الله عنه) بالنجف، وهي مدينة حسنة في أرض فسيحة صلبة من أحسن مدن العراق، واكثرها ناساً واتقنها بناء وبها اسواق حسنة نظيفة، دخلناها من باب الحضرة فاستقبلنا سوق البقالين او الطباخين والخبازين، ثم سوق الفاكهة ثم سوق الخياطين، والقسارية، ثم سوق العطارين...» ثم «المدارس والزوايا والخوانق معمورة احسن عمارة، وحيطانها بالقاشاني وهو شبه الزليج عندنا لكن لونه اشرق ونقشه أحسن...».

والنجف - كما بينا سابقاً - دار هجرة منذ دفن فيها الامام امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام الا انها تميزت بذلك من يوم قصدها الشيخ الطوسي ابو جعفر محمد بن الحسن عام ٤٤٨ هجرية، وجعلها محط رحاله، ودار سكنه، وقاعدة بحثه، ومنطلق افكاره، وموضع قبره بعد وفاته عام ٤٦٠ هـ.

ومنذ ذلك العهد بدأت العمارة تشيد بشكل ملحوظ في هذه المدينة لسد احتياجات المجاورين من السكان، حتى اصبحت بمرور الزمن حاضرة مهمة من حواضر العراق، ومدينة معدودة من مدن بلاد الاسلام.

ومن خلال هذه الظاهرة برز اعلام في فن المعمارية - ونحن نتحدث عن الفترة المتأخرة فقط من تاريخ النجف - تشهد لهم آثارهم بالقابلية الجيدة، وبعضهم بالنبوغ، وما امام اعيننا من بقايا ما بقي من تلك الاثار كاف للتدليل على ما نقول.

وان لا ننسى ونحن نتحدث عن الزخرفة المعمارية اثر الصفويين في هجرة هذا الفن من البلاد التي كانوا يحكمونها، وما كان باقياً من اثارهم الزخرفية عندنا يشبه إلى حد كبير النماذج

التي توجد في بعض المساجد الاسلامية.. وقد استعملت الزخارف والنقوش المعمارية كافة، وبمختلف انواعها: حصيري، مداخل، معقلي، جارلنكه، زهرة، موج، كوفي، وهي ما يطلق عليها مصطلح «خردكار» عند المعماريين.

ومن الذين يذكرون بحق عائلة ابو شريف وعلى رأسهم عبد الحسين شريف الذي بقيت من فنونه زخارف الدور، وفي مقدمتها دار اغا احمد في محلة المشراق، وفيها يبدو الفن الدقيق: في زخرفته سقف الساحة التي بعد باب الدار مباشرة.

وولده شنشون الذي عرف بعد ذلك «ابو جوهر» - وهو ترخيم ابو جواهر - وهي تسمية اطلقها عليه العثمانيون نتيجة براعته في الزخارف الفنية البديعة التي عملها في الصحن الشريف عام ١٣٢٣هـجرية واستمر حتى عام ١٣٢٧ في ايام السلطان عبدالحميد الثاني، وعلى عهد الخازن المرحوم السيد جواد الرفيعي، والتي لم تزل قائمة حتى الان.

وحفيده محسن ابو جوهر (ت/٤/٧/١٩٦٣) الذي تلقى نحت الزخارف على والده واختص فيه وعد من امهر الفنانين، ومن بقايا فنه مدخل باب العكل للصحن الشريف، وايوان السيد محمد سعيد الجبوبي في الصحن الشريف كذلك - والذي كان سابقاً مغشى بأبدع النقوش الصفوية - وواجهات بعض دور النجفيين، كدار الحاج مجيد المختار، والسيد محمد رضا الرفيعي، والحاج عبد المحسن شلاش وغيرهم.

ومن اعلام رواد هذا الفن النابغة العبقرية المعمورة الحاج سعيد المعمار، كان مشهوراً مبرزاً في الهندسة المعمارية، ولعل من أروع آثاره الشاخصة مدرسة السيد المرجع محمد كاظم اليزدي الكبرى، ذات البناء العجيب، والفن الغريب بالنسبة لترتيب الغرف والسراديب وطرق التهوية فيها بشكل لم يسبق اليه، وكان هذا الرجل يجيد كل انواع «المقرنص» من الزخارف المسماة «خردكار».

ومن اعلام الزخرفة: اسطة يوسف المعمار وتلميذه اسطة رسول، وجعفر الحاج حسين واخوه.

ومن العوائل التي برز فيها اعلام لهذا الفن آل المعمار ومنهم مطلق المعمار، وآل شكر ومنهم الحاج كريم، وآل علي بييج ومنهم محمد علي، وغيرهم لا أتذكر اسمائهم. والذي يلفت النظر ويدعو إلى الاعجاب في هؤلاء الذين وردت اسمائهم والاخرين الذين غربت عن بالي اسمائهم فلم ترد هنا، انهم حصلوا على هذه الخبرة لا عن دراسة اكااديمية، او تتلمذ في مدرسة معينة، وانما نتيجة ممارسة طويلة من عمرهم في هذا الميدان.

أما الصخور التي تنحت كشواهد للمقابر فإن لها عمالاً خاصين ماهرين، وكانت هذه

الممارسة يتداولها اولئك العمال المهرة بشكل دوري وتسمى عندهم «النوبة» وقد توسعت في الاواخر نتيجة ظهور رغبات عند آخرين من الناس.

إلا أن الممارسين الاصليين تتميز نتاجاتهم بالفن الرفيع، بسبب العناية الفائقة التي يوليها اولئك، حماية للفن من التضعع والتصدع، والنقد.

والذي يقصد مقابر النجف الخاصة والعامة يجد امامه الامثلة الجيدة لهذا الفن. وهناك عوائل عرفت بممارسته، وعلى رأس تلك العوائل:

آل أبو صبيح، حيث كان المرحوم عباس ابو صبيح الاساس في اشتهار العائلة بهذا الفن الذي اورثه ولده خضير من بعده، وهذا بدوره اورثها اولاده وعلى راسهم الان الحاج اسماعيل ابو صبيح، «آل مال الله» وكان رأس العائلة الحاج حمزة، الذي اورث هذا الفن ولده حاج سعيد، والذي اورث هو بدوره هذا الفن إلى اولاده كذلك.

ولا يفوتنا ان نذكر عدداً من شبابنا الذي زاولوا النحت على الصخر او الحفر على الخشب: من كتابة إلى زخارف، ومنهم الاستاذ سعدي الكعبي، والسيد وهاب المرعبي، والسيد ذياب علام، والسيد احيمد النجار الذي اختص بالحفر على الخشب.

وبالاضافة إلى الحفر على الخشب، الحفر على المعادن، ومن اعلام هؤلاء السيد محمد حسن وولده سليم.

ويجب ان لا ننسى - ونحن ندون هذه الاوليات - ما يقوم به العمال المصريون المهرة الآن في النجف من انعاش عن الحفر على الخشب، وعلى نطاق واسع وبشكل لم يعهد له مثيل في تأريخها، وقد يكون لهذا العمل تأثيره الكبير على ابناء هذه المدينة في المستقبل اذا تدرّبوا واتقنوه، وتفننوا فيه وطوروه.

إلى هنا نكتفي بعرض هذه اللمحات السريعة من تأريخ وتطور الحركة الفنية في النجف، على انني سأواصل جمع ما تناثر من اسماء اعلام هذه الاتجاهات الفنية التي تقدم الحديث عنها لنكون بذلك حفظنا هذه الاسماء من الضياع تكريماً لها وتقديراً لفنها.

